وهو ما يمكن أن نسميه «نسبية الاحساس بالزمن». فعندما يفاجأ «قاسم» المطارد بعدوه «الكابتن بلاك» أمامه، يتحول لديه الاحساس بالزمن فجأة، وتتضخم اللحظة في داخله وتمتد، فيعبر عن هذا الاحساس الداخلي «إن الزمن خديعة. اصطلاح واحتيال وإلا لما كانت تلك اللحظة الواحدة أطول من أية لحظة غيرها ولما كان بوسع ذلك الزحام من الاوهام والحقائق والمشاعر، برعبها وتوقها وتحفزها وأملها ويأسها في آن واحد، أن تتسع له لحظة واحدة كانت في الوقت ذاته، للآخرين، مثل اللحظة التي سبقتها والتي ستلحق بها» (ص ٤٤٢).

ويغيب التحديد الزمني في «الأعمى والأطرش» لكن الايماءات تمنح الزمن الروائي ومكانه بعض الملامح، فالمكان لم يتحدد، ولكنه ليس مكان الفلسطيني... إنه مكان ما من المنفى. أما الزمان، فإن اشارات مثل: اكياس الطحين، وكالة الغوث... تعطي ايحاء به. لكن الزمن في الرواية لا يتوقف عند تلك الحقبة، ولكنه يمتد ليشهد بدايات الزمن الفلسطيني الجديد.. زمن انطلاقة السجين الفلسطيني من سجنه وتحوله الى ثائر. انه زمن تحقق الاحلام التي ما كان لها ان تتحقق إلا بمرور الزمن.. «انها الولادة. ان الحقائق الصغيرة لم تكن في البدء الا الاحلام الكبيرة، والمسألة مسألة وقت ليس غير» (ص ٤٧٣).

وفي «برقوق نيسان»، محاولة اخرى، تتحدث عن زمن الاحتلال فوق الأرض المحتلة. ولا يرتد الزمن هنا عن سياق الحدث وضمنه، بل من خلال الهوامش الموازية التي تمنح للحاضر عمقه في جذور الماضي. فلا يكتفي الكاتب بتقديم شخصياته وأحداثه كما هي واقعة الآن، ولكنه يغني الأحداث والشخصيات بالماضي والتفاصيل.

■ ■ ■

البطل المقاوم... غائباً وحاضراً

تتحرك شخصيات غسان كنفاني الروائية في فضاء تاريخي متغير، هو التاريخ الفلسطيني، في هبوطه وصعوده، وفي رتابته وانعطافاته.

وطوال هذا التاريخ، ظل البطل الفلسطيني المقاوم حاضراً. وحتى في الزمن الذي كان يشهد غياب البطل عن أرض الواقع، ظلت فيه نماذج البطل المقاوم حاضرة في وعي وذاكرة الناس.

ففي «رجال في الشمس»، لم يكن التاريخ قادراً على أن يقدم بطله المقاوم، فظلت البطولة غائبة حتى النهاية. لكن صورة البطل لم تكن تغيب عن الذاكرة..

البطل الغائب، الحاضر في الذاكرة، في هذه الرواية، هو الاستاذ «سليم» (الذي يطل علينا من ذاكرة «أبو قيس»)، ذلك العجوز الأشيب، المدرس القديم في القرية، الذي لم يكن يعرف كيف يصلي لكنه كان يجيد اطلاق الرصاص، فسقط برصاص العدو وهو يدافع عن القرية قبل سقوطها عام ١٩٤٨ «ولكنك على أي حال بقيت هناك... بقيت هناك! وفرت على نفسك الذل والمسكنة وانقذت شيخوختك من العار... يا رحمة الله عليك يا